الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

نحو آفاق القرن الواحد والعشرين

بسم الله الرحمن الرحيم وبعد:

فإنّ هذا العنوان " آفاق القرن الواحد والعشرين " الذي أقدّم به مقالتي لهذه الأمسية هو ما أوحاه إليّ السيد الدكتور نصر عباس في أثناء اتصال هاتفي. والواقع أنني بادرت إلى الموافقة على الالتزام بهذا العنوان لا لأنّ هناك فاصلاً زمنياً واضح الأبعاد محدّد الأطراف بين قرننا الذي يقترب من نهايته وبين القرن القادم، فالفصل بين القرنين بمعالم وقسمات مادية أو معنوية يكاد يكون مستحيلاً ، بل لأن القرن الواحد والعشرين وما يرمز إليه من خطوات وأعمدة إنما هو إشارة إلى المستقبل وحسب. والمستقبل كما تشير كل الوقائع يتصل لا بالحاضر وحسب بل يتصل بالماضي أيضاً ولا أقصد الماضي القريب بل كذلك الماضي البعيد.

****

وفي حاضرنا اليوم مثلاً معالم كثيرة في ميدان العلوم الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية هي إعلان صارخ عن دخول مجتمعات العالم المتقدم صناعياً إلى مرحلة ما بعد الصناعة وهي المرحلة الثالثة في منطق ومقاييس من يؤرخون للحضارة المعاصرة من الغربيين ، وهذا يعني بالطبع أن صانعي هذه الحضارة قد قفزوا الى المستقبل منذ سنوات تمثل على الأقل في ربع القرن العشريني الأخير.

والظن الغالب أن القرن الواحد والعشرين الذي يرمز إلى المستقبل في تصنيف علماء الحضارة سيضمّ في أعماقه قطاعات كثيرة من الماضي القريب والبعيد متمثلة في مجتمعات العالم الثالث وبعض العالم الذي حقق خطوات قليلة أو كثيرة في ميدان التقدم العلمي .

وإذاً فنحن حين نقول القرن الواحد والعشرون لا نعني فصلاً محدداً بالمكان والزمان بين قرننا اليوم والقرن الذي نستعد لاستقباله.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

****

وقد يتساءل بعضنا عن السبب الذي يدفعني إلى تحقيق المفهوم من التصنيف القرني او العلاقة الحقيقية بين قرننا والقرن القادم والجواب عن هذا التساؤل أن السبب هو الحاجة إلى التدقيق في التعبير عن المعاني الذي هو شرط المعرفة العلمية.

ولعلنا نحن العرب أحوج ما نكون إلى الالتزام لهذه الدقة لأن الفرق الأكبر بين التخلف والتقدم العلمي هو الفرق بين اللغة التي تغلب عليها العموميات وبين تلك التي تتصف كلماتها بالدقة الرياضية أو الدقة العقلية. ولعلي لا أحتاج إلى تقرير أن لغتنا العربية تغلب عليها العموميات بخاصة بسبب قصورنا العلمي. والواقع أن القصور في الأداء اللغوي عندنا لا يعود إلى تخلف في بناء لغتنا القومية بل إلى قصورنا العلمي بالذات. إن لغتنا العربية كما يقرر علماء اللغات تكاد تكون متكاملة في بنيتها وخاصيتها في التولد الذاتي بحيث تشبه البنية البيولوجية في عالم الأحياء. يكفي أن نذكر بأن اللغة العربية هي لغة اشتقاقية . والاشتقاق ميزة لا نكاد نجدها في لغات العالم المتقدم علمياً وصناعياً. يكفي أن نذكر بأن المصدر الثلاثي كما جاء في كتاب " مقدمة لدرس لغة العرب " الذي وضعه الأستاذ الشيخ عبد الله العلايلي في لبنان يمكن أن يستخرج منه ما لا يقل عن ثلاثة مائة وستين وزاناً لكل وزان معنى متميز من الآخر. ويكفي أن نذكر أيضاً أن المصدر الرباعي ممكن أن يستخرج منه كما يقول المؤلف ما لا يقل عن ستة وثلاثين وزانا. لكن العرب حتى اليوم لم يبذلوا الجهد العلمي الكافي بحيث يتم استيعاب كل الموازين التي يتضمنها هذان المصدران اللغويان . وكيف نريد أن تتسع لغتنا لهذا الاستيعاب اذا كنا لم نشارك حتى اليوم في البحوث العلمية وبالتالي لم نحاول في تعريب هذه البحوث.

فالقصور اذاً هو قصورنا نحن العرب لا قصور اللغة التي أورثنا إياها الآباء والأجداد.

****

وما دام هذه هو وضعنا العلمي فإن المستقبل الحضاري الذي تشير إليه آفاق القرن الواحد والعشرين لن يكون مستقبلنا نحن بل هومستقبل الأمم التي استقلت ولا تزال تستقل في صنع أشياء الحضارة المعاصرة.

وقد يظن بعضنا أن السبب في قصورنا يعود إلى حداثة عهدنا بالحضارة المعاصرة. لكن الواقع يبطل هذا الرأي. فإن عهدنا بهذه الحضارة يعود إلى مائتي عام سبقت أي إلى العام ١٧٩٨ الذي وصل فيه الأسطول الفرنسي إلى ميناء الاسكندرية بقيادة نابوليون بونابرت . والذي ترتّب على وصوله ورافقه هذا التحدي البالغ بين حضارة علمية دخيلة قطعت أشواطاً بعيدة وطويلة منذ انقطع التواصل بين أوروبا وبين العالم العربي الإسلامي بعد هزيمة الفرنسيين بقيادة لويس التاسع

الفرنسي في أواخر الحروب الصليبية . ولما كانت هزيمة لويس التاسع قد كشفت عن تخلف الغزاة الفرنسيين آنذاك فإنّ هذه الصورة بقيت متوارثة في ذاكرة الأجيال العربية الإسلامية اللاحقة حتى بداية القرن التاسع عشر. وليس أدلّ على عزلة العرب والمسلمين عما يجري في العالم الخارجي من تلك الدهشة التي ارتسمت في وجوه سكان الاسكندرية حين قيل لهم أن أسطولاً فرنسيا بقيادة قائد يدعى بونابرت يقترب من بلادهم. ويروى أن قاضي الاسكندرية قد قال يومذاك متسائلاً : وهل يجرؤأعجمي على أن يدوس أرض الكنانة. فالقاضي هذا شأنه شأن كل النخبة العربية التي لم تكن حتى ذلك الوقت تعرف عن عالم الغزاة إلا ما عرفه السابقون عنه قبل ثمانية قرون.

****

وقد كان جديراً بهذا اللقاء بين الغرب الغازي وبين المشرق العربي أن يدفع هذا الأخير الى إعادة النظر في كل أشياء حياته وفي طريقة تفكيره وإلى إخراجه من العزلة التي طوى نفسه عليها. لكن الذي حدث حتى اليوم أن المشرق العربي رغم الصدمة التي زلزلت كيانه وأشاعت الدهشة في عقول أبنائه لا يزال عاجزاً عن اللحاق بصانعي الحضارة المعاصرة. فهو لا يزال يشتري أشياء هذه الحضارة ثم لا يجد الشجاعة الكافية للإسهام في صنع هذه الأشياء والدخول بالتالي الى ميدان المنافسة التي تكون بين الأنداد.

أما ما يقال عن حداثة عهد العرب بالحضارة المعاصرة فإن الاحتجاج به يسقط حين نعلم أن التحدي الغربي للعرب قد بدأ قبل بداية النهضة في البلاد الروسية بثلاثين عاماً وقبل بداية النهضة اليابانية بثمانين عاماً تقريباً. وروسيا اليوم واليابان بصورة خاصة هما كما تعلمون تقفان فوق قمة عالية من قمم الحضارة العلمية.

****

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا اليوم ونحن نستقبل القرن الواحد والعشرين الذي تسبقه قفزة الثورة الحضارية الثالثة والتي اتفق على تسميتها بإسم مرحلة ما بعد الصناعة هو ما يلي :

لماذا لم يستطع العرب بخاصة والمسلمون بعامة أن يلحقوا بركب العالم الصناعي العلمي المتقدم فوقفوا عند المرحلة التي لا زالوا يشترون فيها أشياء الحضارة دون أن يشاركوا في صنعها والتي لازالوا معها يعانون نوعاً من التيه والضياع لا في مجال العلم وحسب بل في كل المجالات الحياتية الأخرى ، أقصد المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبالتالي مجال الوعي الثقافي؟ هل سبب ذلك شيء في شخصيتهم الذاتية أم في الظروف العاثرة التي تحيط بهم وتحول دون وضوح الرؤية عندهم

يقول المرحوم مالك بن نبي الفيلسوف الإسلامي الذي لا يحتاج إلى تعريف في كتاب سبق أن نقلته إلى العربية بعنوان : " نداء الإسلام " (إنه ليس هناك استعمار بل هناك قابلية للإستعمار). فالمستعمر ليس هو الذي يفرض الاستعمار لكنّ قابلية الشعوب المستعمرة هي التي تمكّن لهذا الاستعمار وتفتح الطريق أمامه بسبب غياب هذه الشعوب عن دورها الحضاري.

وقد صدق مالك بن نبي في تشخيص هذه الظاهرة الاستعمارية . فالعربي لا يزال حتى اليوم بدعوى العودة إلى الأصول يصرّ على الاحتفاظ بميراثه التراثي معنى وشكلاً في الكليات والتفصيلات في التنظير والتطبيق كما لو أن التعامل مع العصر اليوم يجب أن يحتفظ بالصورة والأشكال التي كان الآباء والأجداد يتعاملون بها مع عصورهم دون أن يدخلوا أي تعديل على ماتوارثوه منذ أكثر من ألف عام. إنهم لا يزالون حتى يومنا هذا يترددون خائفين وجلين في اقتحام عالم يشترط عليهم أن يستقلوا في استخدام عقولهم وأن يبادروا إلى وضع الحلول المطلوبة وهم يواجهون أزماتهم الحياتية كلها , كما يترددون في دفع الثمن الذي تتطلبه هذه الحلول.

****

إنّ مشكلة العرب أنهم فريقان : فريق يرى ضرورة تبنّي الحضارة المعاصرة تبنياً كاملاً والتحرر من الماضي التراثي وقيمه ومقاييسه وموازينه وعقيدته، وفريق يرى ضرورة العودة إلى التراث والالتزام له التزاماً تاماً حتى في أدق شكلياته . أما رؤية الفريق الأول فهي تتجه في طريق مسدود اعتبره بعض المفكرين العرب نوعاً من الجنون,وأما رؤية الفريق الثاني فهي الرؤية التي تتجاهل الدعوة القرآنية المفتوحة التي جاءت في قوله عز وجل: " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ." والتي تتجاهل ما قرره الكتاب السماوي الكريم من أنّ السماوات والأرض وما بينهما قد سخّرت للانسان وجعلت ميداناً لنشاطه العقلي بحيث يفيد بهذا النشاط من النعم التي بسطها الله لعباده.

وهناك فريق عربي ثالث يمثل بين الفريقين السابقين أقلية لا يزال صوتها خافتاً فلا يكاد يسمعه أحد وإذا سمع هذا الصوت فإن أحداً لا يجرؤ على العمل به لأنه يشترط بطولة في الفكر واستعداداً للتضحية وثقة بالعناية الإلهية وجرأة في اقتحام مجاهيل المعرفة ورجولة في مواجهة التحديات القادمة من الخارج .

****

روى الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه " قيم من التراث " الواقعة التالية فثبتها باختصار قال : عندما سئل روجيه غارودي الفيلسوف الشيوعي سابقاً عن سبب دخوله في الإسلام قال : لقد رأيت أنّ الحضارة الغربية عارية من هدف يعمل له أفرادها أما الاسلام فقد حدد هدفاً واضحاً ثابتاً لأتباعه . أما الحضارة الغربية فقد نتج عنها الاغتراب والقلق لأنها لم تحدد هدفاً لنشاط الإنسان فيها وليس كذلك الإسلام الذي يدخل الطمأنينة والإستقرار إلى نفس المسلم في حياة عاصفة بالمتاعب والأزمات.

هذا الجواب كما روى الدكتور زكي نجيب محمود دفع عميداً لإحدى الكليات الجامعية وطالبا في كلية للهندسة الى الكتابة إليه , جاء في رسالتيهما نوع من الاحتجاج الصارخ على دعوة الدكتور الى الالتزام بالمنهج العقلي خلاصته أن المسلم يجب أن يكتفي بالثقافة الاسلامية وأن يستغني عن كل ما جاءت به الحضارة المعاصرة.

وقد غرب عن بال صاحبي هذا الاحتجاج أنه إذا كانت الحضارة الغربية المعاصرة قد عجزت عن وضع هدف لأبنائها فقد استطاعت أن تصنع الوسيلة إليه وهي المعرفة العلمية. أما الثقافة الاسلامية فإنها وضعت الهدف ولكنها لا تملك الوسيلة اليه. ولذلك فإن من الطبيعي أن تكون الحضارة المتكاملة قادرة على امتلاك الوسيلة وتحديد الهدف . وهو ما نطمح نحن إليه.

****

إن العمل العقلي والسير في جنبات الأرض واقتحام المجاهيل في الأكوان والمخلوقات كلها بالإضافة إلى العقيدة والتشريعات الملحقة بها وما يترتب عليها من الثواب والعقاب بعد الموت هو الصورة الحقيقية والغرض الأعظم لاستخلاف الإنسان في الأرض ، وهو الاستخلاف الذي جعل الانسان مخلوقا مفضلاً على كثير ممّن ومما خلق الله في السماوات وفي الأرض. أوليس في سجود الملائكة لآدم عليه السلام يوم خلقه الله إعلاناً عن عظمة هذا الاستخلاف وخطورته ؟ ثم أليس في قوله تبارك وتعالى : "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا " ما يؤكد حق الانسان في أن يركب صهوات المعرفة التي تمكنه من استيعاب القوانين والسنن التي تنتظم بها مسيرة الخلق كله ؟

****

أيها الأخوة والأخوات ...

لقد تعاقبت حضارات كثيرة في الماضي سادت كل منها ثم بادت وكانت لمن صنعوا الواحدة منها ذاتيتهم وثقافتهم الخاصة وخصائصهم الأصيلة. ولولا هذه الصفات ما استطاعوا أن يصنعوا الحضارة التي تنسب إليهم. واذا كانت كل حضارة من هذه الحضارات الماضية قد بادت بعد سيادتها فلأن شعوبها قد فقدت صفة أو أكثر من صفاتها الأصيلة التي تحققت بها ذاتها.

إن تحقيق الذات الحضارية يعني الانطلاق والعمل في ضوء مقومات نفسية واجتماعية وخلقية ومناهج في التفكير يمكن أن تختصرها كلمة " ثقافة " بمعناها الأوسع. فالفراعنة مثلاً كانت ذاتيتهم الحضارية مزيجاً من القيم السحرية والعلوم التطبيقية والأساطير الدينية المتجسدة في طقوس وفنون من العبادات الوثنية. وقد حققوا بالعلوم التطبيقية إنجازات لا تزال حتى اليوم تبعث على الإعجاب والدهشة . لكن هذه الإنجازات كانت تفتقد التنظير العلمي الذي يفتح الطريق واسعاً أمام مسيرة علمية طويلة النفس.

وأما الحضارة اليونانية الرومانية فقد انبثقت ذاتيتها وتحققت لها رؤيتها الخاصة بمزيج من التراث الأسطوري الغزير ثم أعقبتها رؤية فكرية منطقية برزت متكاملة فيما سمي من بعد : " منطق أرسطو " الذي يستند إلى مسلمات وبدهيات عقلية ذات شهرة يقينية . وقد كادت تلك الحضارة أن تتصل بالعلوم الطبيعية ولكنها لم تحقق في ميدانها غير خطوات قصيرة فقدت بعدها طاقاتها الفكرية وقدرتها على الإبداع المنهجي.

****

والقاسم المشترك بين هاتين الحضارتين أن الآلهة عند أصحابهما لا تعدو في جوهرها أن تكون مخلوقات إنسانية متفوقة تتصف بما يتصف به الإنسان من ضعف وقوة وصلاح وفساد وغيرها من التناقضات البشرية المعروفة . وهذا يعني أن الذات الإلهية باعتبارها ذاتاً مفارقة لكل المخلوقات ليس كمثلها شيئ وتتصف بوحدانية مطلقة لم تعرفها هاتان الحضارتان البائدتان.

وقد كان في وسعنا أن نستعرض الصور الحضارية البائدة الأخرى لكننا اقتصرنا على ذكر هاتين الحضارتين لنقرر معنى تحقيق الذات .

وإذا كانت للفراعنة القدماء ثقافتهم الخاصة وحضارتهم ذات الطابع المستقل الأصيل، وكان لليونانيين الرومانيين مثل ذلك فإن لنا نحن العرب ثقافتنا المتميزة بمصادرها وظروفها الجغرافية والاجتماعية والفكرية. وفي وسعنا التعبير عن هذه الثقافة العربية بالقول : " إنها ثقافة ذات طابع سماوي ".

فالجزيرة العربية والمناطق الجغرافية المتاخمة والتي تعتبر امتداداً طبيعياً لها قد سجلت في صفحات التاريخ قصة الرسالات السماوية التي تعاقبت على امتداد القرون . وبدت كل رسالة لاحقة منها على صورة محاولة لتجديد ما سبقها من الرسالات أو توسيع أبعادها وتعميق جذورها حتى إذا جاءت الرسالة الخاتمة تحققت معها فكرة العالمية الشاملة التي يتمثل فيها البعد الحقيقي للحضارة ذات الطابع الإنساني.

****

تعالوا معي نستعرض المراحل التي مرت بها المسيرة السماوية في الجزيرة العربية وامتداداتها الجغرافية. هذه المراحل نجدها مذكورة بتوسع كبير في كتاب الله عز وجل . صحيح أن الوحي السماوي قد حدثنا عن أبي البشر آدم عليه السلام وحدّد لنا شخصيته وصنفه بين مختلف المخلوقات وجعله مفضلاً على كثير ممّن خلق الله تفضيلا، لكنّ فجوة من الزمان فصلت بين آدم أبي البشر وبين أول رسول قص علينا آي الذكر الحكيم قصته مع قومه هو سيدنا نوح عليه السلام ... ثم مضت فجوة أخرى من الزمان طالت أو قصرت ظهر بعدها أبو الأنبياء خليل الله إبراهيم عليه السلام . فكانت قصة حياته بمثابة خطوط أساسية تحددت بها أبعاد عقيدة الوحدانية . وتخبرنا هذه القصة أنه عليه السلام أنكر على قومه في قريته عبادتهم للأصنام حتى إذا رفضوا دعوته وحاولوا إحراقه ثم نجا بنفسه وأهله مضى إلى فلسطين ومنها إلى أرض مصر ثم عاد إلى فلسطين لينطلق مع زوجه هاجر بعد ذلك إلى وادي مكة حيث أتيح له أن يرفع مع ولده إسماعيل القواعد من البيت الحرام وأن يطلق على أتباع هذا البيت اسم " المسلمين ".

هكذا تحددت دعوة الوحدانية ثم جاء الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من بعد، يكررون المناداة بهذه الدعوة ويلحقون بها تبعاً لأوامر الله عز وجل التعديلات التطبيقية التي يقصد بها تدعيم صورة الوحدانية في النفوس.

وقد بدت الدعوات السماوية السابقة على تلك التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم على صورة مراحل إعدادية يقصد بها تأهيل الأمة في هذه الأصقاع لحمل الرسالة الخاتمة التي ظهرت في بداية القرن السابع الميلادي.

و نحن هنا في غير حاجة إلى التساؤل عن السبب الذي تم به اختيار أمة العرب دون سواها من أمم الأرض لحمل رسالة السماء على الصورة التي سجلتها وثائق التاريخ . إننا اذ نستعرض قصص الأنبياء والرسل وإذ نكتشف أن تاريخ أمتنا قد خلا من القادة الفلاسفة الذين يستقلون في صنع ثقافة أمتهم لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة الثابتة وهي أن أمة العرب لا تحقق ذاتها ولا تكشف عن أصالتها إلا بالتزامها لرسالتها التاريخية التي هي رسالة السماء.

وكل محاولة لتجاهل هذه الرسالة والانصراف عنها مهما تكن البواعث والحوافز فإنها لا تلبث أن تلقي بهذه الأمة في متاهات من القلق والضياع والإغتراب. ولعل أخطر ما نشكو منه نحن عرب اليوم هو أننا عاجزون عن الالتزام لهذه الرسالة كما نفتقد إحساسنا العميق بعزة الانتساب إليها فأصبح شأننا شأن الغراب الذي أراد أن يقلد طير السنونو في مشيته ففقد مشيته الأصلية ولم يتعلم مشية ذلك الطير.

****

والواقع أن عرب اليوم يطمحون إلى الإمساك بزمام الدنيا والاستقلال في صنع حياتهم. لكن طموحهم هذا لا يزال يتعثر بالعقبات يتلو بعضها بعضاً ,وإذا بهذا الطموح يتضاءل في خطواته تضاؤلاً لا يلبث أن يتحول به إلى مسخ مشوه.

العرب اليوم يريدون اللحاق بركب الحضارة المعاصرة. ويظنون أن مجرد الحصول على أشياء هذه الحضارة كاف لتحقيق طموحهم. ولكنهم لا يكادون يشترون هذه الأشياء حتى يتعرضوا لإحباط جديد.

فالحضارة لا تشترى بالمال ولا تصبح ظاهرة أصيلة عند أصحابها ما لم يستقلوا في صنع أشيائها وما لم يلتزموا بالخصائص والصفات التي تشترطها فيهم.

****

إن الحضارة التي تتحقق بها ذات الأمة تشترط صفات وخصائص كثيرة نثبت فيما يلي أهمها:

١) الإيمان الراسخ بحقها في الحياة والاعتزاز بالتراث الفكري والروحي الذي ينتهي إليها من الآباء والأجداد. بحيث يتحول هذا التراث إلى غذاء تغتذي به النفوس وتتضح به صورة المستقبل.

٢) الإرتباط بالعقيدة الدينية التي ميزت مسيرتنا التاريخية عبر القرون والتي قضت الإرادة الالهية أن تكون مبرر نشاطنا والحافز الأكبر إلى مغالبة كل انحراف عن مفهوم الوحدانية المطلقة والضامنة لسلامة رؤيتنا الدينية. وهنا أثبتت سطوراً لواحد

من أعلام الدعاة إلى استيعاب الحضارة المعاصرة هو الدكتور زكي نجيب محمود حيث قال في ص ١٦٧ من كتابه " قيم من التراث ": " فأما المرحلة الأولى من حياتي الفكرية ، فقد كنت فيها لا أجد بديلالصورة الحضارة الغربية كما هي في عصرنا، لأنها هي حضارة القوة والعلم والإبداع والمغامرة وتحقيق السيادة على الطبيعة، فتسخرها تسخيراً لا يقتصر نفعه على قلة من الناس، بل أن نفعها ليعم حتى يصل إلى أصغر كوخ في أقصى الأرض. لكنني عدت بعد تلك المرحلة الأولى، فرأيت أنها وإن تكن ضرورية ضرورة الحتم الذي لا يدع مجالاً للإختيار، إلا أنها ليست وحدها كافية، إذ لا بد أن تضيف إليها كل أمة ما يميزها من سمات ثقافية هي التي حددت لها هويتها، أباً عن جد، ثم عن جدود يتعاقبون جيلاً بعد جيل ليكونوا " تاريخاً " واحداً موصول الحلقات".

هذه الثقافة التي يشير إليها الدكتور زكي نجيب محمود هي ثقافة الوحدانية بكل أبعادها التي حددها لنا وحي السماء. إنها الأبعاد التي يؤمن معها الموحّد بأنه لا إله إلا الله. وأنه لايصيبنا إلا ما كتبه الله لنا من حياة وموت وصحة ومرض وأنه لا ملجأ إلا إليه ولا رازق إلا هو, وهكذا ينتقل المؤمن بفضل هذه الوحدانية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وهي الأبعاد التي يعتقد معها المؤمن بأن الخلق لم يخلق عبثاً بل له هدف معين يبلغه المؤمن بعد الموت في موقف رهيب بين يدي الله عز وجل يثاب فيه المؤمن الصالح على عمله جنة ورضوانا من الله ويعاقب فيه الكافر بالله ونعمه على عمله ناراً لا تبقي ولا تذر.

هذه العقيدة التي لا يخالطها أي شرك والتي تحرر صاحبها من الآلهة المزعومة وشهوات سدنتها هي التي تهب المؤمن طمأنينة القلب وتمنحه الشجاعة المطلوبة لمواجهة كل الأزمات وأنواع البلاء وتمكنه من الانتصار على كل دوافع الشكوك والريب.

٣) ويترتب على الاعتزاز بالأمة والإيمان بعقيدة الوحدانية إحساس صاحبهما القوي بالحرية في التعامل مع كل من وما يحيط به من الناس وأشياء الخلق كلهم. وكيف لا يكون المؤمن حراً وهو الذي تعلم من كتاب الله أنه الخليفة المختار في الأرض وأن الله أسجد الملائكة لأبيه آدم وأنه فضل على كثير ممن خلق الله تفضيلاً وأنه أريد له أن يكون سيداً في السماوات وفي الأرض وفيما بينهما لأن الله أخبره بأن السماوات والأرض وما بينهما قد سخرت له ووضعت تحت تصرفه يسير فيها حيث شاء وكما يشاء فلا يخاف رجساً ولا رهقاً . حتى إبليس الذي كان من الجن قد لعن وطرد من رحمة الله لأنه رفض السجود لآدم عليه السلام.

إن هذه الحرية التي لا يلتزم صاحبها إلا للحدود التي وضعها الله عز وجل وهي حدود وضعت لخيره وسلامته كافية لتمكينه من مواجهة كل العقبات والعراقيل والاستهانة بكل المخاطر.

٤) إن هذه الحرية التي لا يلتزم صاحبها إلا للحدود التي وضعها الله عز وجل جديرة بتكوين روح المسؤولية عنده. أي أن حريته ليست مصدر تصرف عابث ولا فكر فوضوي , بل هي أمانة خطيرة أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها وحملها الانسان. وهكذا تأخذ المراحل الأربعة التي أثبتناها بعضها برقاب بعض. فلا يتأتى للاحقة منها أن تحقق ذاتها ما لم تكن السابقة منها قد حققت ذاتها أيضاً. وهذا معنى قوله جل وعلا في تعيين مفهوم المسؤولية الحرة المؤمنة المعتزة بذاتها : " إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولا . "

إنّ الإحساس بالمسؤولية يحول دون الفوضى في التصرف والعبث في الفكر والعمل كما يحول دون الخيانة وسوء الإئتمان ويغذي صاحبه بروح الجدّ والرصانة والصدق في القول والعمل. كما يحمي المجتمع من مخاطر الشهوات التي تفرزها الغرائز العمياء. وأخيراً يجب أن تعتبر المسؤولية الضمانة الأولى والأخيرة لبناء مجتمع صحي سليم.

٥) وأخيراً يبلغ صاحب هذه الصفات التي أثبتناها قمة العطاء الإنساني الذي يتم في ضوء العناية الإلهية. هذا العطاء هو ما نعبر عنه بالنشاط العقلي الحر والمسؤول . والنشاط العقلي ليس وقفاً على جيل دون جيل. ولا على قرن دون قرن من السنين، إنه حق وواجب. هو حق لكل إنسان وواجب على كل قادر عليه. ولعلنا نذكر جميعاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شجع معاذ بن جبل على الاجتهاد فيما لم يأت به نص ثابت من كتاب الله وسنة رسوله، والرسول صلى الله عليه وسلم فعل أكثر من ذلك حين حفز المؤمن على الاجتهاد فقال أنّ للمجتهد المصيب أجران وللمجتهد المخطىء أجر واحد، وحين أخبر المؤمنين نقلاً عن ربه أن ميدان العمل العقلي والنشاط الإنساني هو كل ما خلق الله في السماوات وفي الأرض وفيما بينهما.

****

هذه خلاصة جامعة مانعة لثقافتنا الإسلامية التي تتحقق بها ذاتنا الحضارية وتتحدد بها وظيفتنا في الدنيا ويتعين بها هدفنا من نشاطنا الدنيوي فيستحيل معها أي إحساس بالقلق والضياع والاغتراب.

والهدف منها هو أن نلقى الله عز وجل كتابنا بيميننا فنجد أنفسنا معه في عيشة راضية. هذا الهدف هو الذي يعطي مفهوم العبادة في ثقافتنا الاسلامية أبعاداً يؤسفنا نحن اليوم أننا منها بين أمرين : إما تجاهلنا لها أو جهلنا بها. ونحن في كلتا

الحالتين آثمون. ويستبين هذا الجهل أو ذلك التجاهل فيما كان يقال لنا ونحن بعد في صفوف الدراسة من أن العلم الذي تطالبنا به الشريعة الإسلامية هو علم الفقه وما يتصل به من العلوم الدينية. أما ما وراء علم الفقه وما تفرع عنه فهو ظاهر من العلم وليس علماً . والثواب المكتوب للعالم هو ثواب علم الفقه وحسب . والحق غير ذلك. إن الحق هو أن كل علم تستطيع عقولنا أن تستوعبه داخل في مفهوم العلم الذي تدعونا الشريعة الى إستيعابه.

فإذا كنا نعبد الله بتعلّم الفقه والشريعة فنحن نعبد الله أيضا بتعلم كل صنوف المعارف التي يسعنا التوصل إليها. فليس الفقيه بأعبد لله عز وجل من المهندس الزراعي أو المهندس الميكانيكي أو عالم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها من العلوم المادية .

نحن نعبد الله حين نخدم لغتنا . ونعبد الله حين نستعمر الأرض. ونعبد الله حين نبني المصانع. ونعبد الله حين نجوب آفاق السماوات والأرض. ونعبد الله حين نطبب المريض ونحافظ على سلامة البيئة . ونعبد الله حين نستعد لمقاومة الأخطار. ولا يشترط لصحة هذه العبارات إلا شرط واحد هو أن يكون نشاطنا العقلي فيها باسم الله واستجابة لأمر الله وجهاداً في سبيل الله . أي أن ثقافتنا الإسلامية تقرر بأن إعمار قلوبنا بالإيمان مشروط بإعمار دنيانا بكل جديد من الإبداع المادي . فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف. والمؤمن العالم بالسنن والقوانين التي وضعتها العناية الإلهية هو وحده الذي يحق له بأن يدّعي لنفسه صفة الإيمان الخالص. إن السعي الى كل علم فقهاً للشريعة كان أو فقهاً لأسرار الكون والطبيعة والحيوان والنبات والأنسان هو العبادة التي أمرنا بممارستها.

والعلم في شريعتنا علمان : علم هو فرضي حين نمارس به عبادتنا اليومية من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمل صالح , وعلم هو فرض كفاية تأثم الأمة كلها حين لا يكون بين أفرادها من يتقنه. وفرض الكفاية هو مجموعة الأنشطة العلمية المادية التي نستغني بها عن الغرباء فنستقل بها فلا نكون عيلة على من يتجهمنا من الشعوب الأجنبية ومن يعتدي علينا من الغرباء.

إن العلوم هي وسيلتنا في بناء الحضارة وإن سعينا إلى إرضاء الله عز وجل بإخلاص العبادة له وترقبنا للثواب يوم البعث هما الهدف الذي نقصد إلى بلوغه ونحن نبني هذه الحضارة.

****

وأخيراً اسمحوا لي أن أستأنف العودة إلى عنوان المحاضرة الليلة " حول آفاق القرن الواحد والعشرين " وأن أقول لكم أن كل ما كتب حتى اليوم فيما يسمى " علم المستقبل " لم يكتب لنا نحن وفي ضوء ظروفنا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية

والسياسية ,بل كتب للأمم المتقدمة في ميدان العلوم المادية والتكنولوجيا في ثورتنا الثالثة كما يقولون .. ولو أننا تصفحنا الكتاب الضخم الذي كتب بعنوان " العام ٢٠٠٠ " والذي أشرف على إعداده كل من الأستاذين الأميركيين كامن وونير لما وجدنا فيه غير تنبؤات تراكمية تتصل بالرفاه المادي وسلطان التكنولوجيا وسيطرتها على الإنسان ممّا لا علاقة لنا به.

فنحن لا نشارك في بناء هذه الحضارة المعاصرة وإن كنا نشتري أشياءها ونخدع أنفسنا بزعم المشاركة في صنعها. إنّ صورة القرن الواحد والعشرين والأطماح التي يطرحها أمامنا تملي علينا القيام بمراجعة شاملة تحيي ما درس من قيمنا وتساعدنا على تحقيق ذاتنا ثم ننطلق منها لصنع أشياء حضارتنا مستقلين عن سوانا, فنأكل من نتاج أيدينا ونتسلح بما تبدعه عقولنا ونجوب الدنيا والفضاء الرحيب بما نبنيه من ذوب عرقنا. ثم لا نعبد الله في المسجد وحسب بل نعبده في جمع صفوفنا وتعالينا عن التفاهات التي تفرقنا وفي العمل الدؤوب في المخابر والمصانع وفي استصلاح الأراضي البور وفي حماية ثغورنا من الأخطار الخارجية. وهذه كلها تشترط الشجاعة في مواجهة الأخطار والشجاعة في التفكير والحرية في الاجتهاد لديننا ودنيانا . فنحن رجال والآباء والأجداد رجال نفعل كما فعلوا ونجتهد رأينا كما اجتهدوا لأننا نرى اليوم ما لم يكونوا يرون ونواجه من المعضلات ما لم يكونوا يواجهون بل ولم يخطر لهم على بال.

أيها الأخوة والأخوات ..

لا يعودنّ أحدنا إلى تكرار ما قاله السابقون فيما لم يرد فيه نص واضح محكم من كتاب الله وسنة رسوله, بل نقول ونردّد ما تمليه علينا عقولنا التي تسترشد بالعقيدة الصادقة وحقنا في ممارسة حريتنا المسؤولة ثم لا نخاف من الوقوع في الخطأ. فما بنيت حضارة من مثل حضارة الآباء والأجداد إلا في ضوء الخطأ والصواب. نسأل الله عز وجل أن يوفقنا إلى الوعي بحقيقة الهدف من رسالتنا الإسلامية وإلى الاستقلال في صنع الوسيلة لتحقيق هذا الهدف عملاً بدينه وسيراً في أرضه وسمائه وإيمانا بحقنا في صنع حياة قوية نرتفع فيها .